الفصل السابع

صفاته وأخلاقه وشخصيته

صفاته وأخلاقه

وصفه تلميذه الأكبر الأستاذ الشيخ محمد عبده بقوله: «إنه يمثل لناظره عربيًّا محضًا، من أهالى الحرمين، فكأنما قد حفظت له صورة آبائه الأولين، من سكنة الحجاز، ربعة فى طوله، وسط فى بنيته، قمحى فى لونه، عصبى دموى فى مزاجه، عظيم الرأس، فى اعتدال، عريض الجبهة، فى تناسب، واسع العينين، عظيم الأحداق، ضخم الوجنات، رحب الصدر، جليل فى النظر، هش بش عند اللقاء، قد وفاه الله من كمال خلقه، ما ينطبق على كمال خلقه، أما أخلاقه فسلامة القلب سائدة فى صفاته، وله حلم عظيم، يسع ما شاء الله أن يسع، إلى أن يدنو منه أحد ليمس شرفه أو دينه. فينقلب الحلم إلى غضب، تنقض منه الشهب، فبينما هو حليم أواب، إذا هو أسد وثاب، وهو كريم، يبذل ما بيده، قوى الاعتماد على الله لا يبالى ما تأتى به صروف الدهر، عظيم الأمانة، سهل لمن لاينه، صعب على من خاشنه، طموح إلى مقصده السياسى، إذا لاحت له بارقة منه تعجل السير للوصول إليه، وكثيرًا ما كان التعجل علة الحرمان، وهو قليل الحرص على الدنيا، بعيد

عـن الغرور بزخارفها، ولو بعظائـم الأمور، عزوف عن صغارها، شـجاع، مقدام، لا يهـاب الموت، كأنه لا يعرفـه، إلا أنه حديد المزاج، وكثيرًا ما هدمت الحدة ما رفعته الفطنة، إلا أنه صار اليوم فى رسـوخ الأطواد وثبات الأفناد، فخور بنسبه إلى سيد المرسلين ﷺ، ولا يعد لنفسـه مزية أرفع ولا عزًّا أمنع من كونه سـلالة ذلك البيت الطاهر، وبالجملة ففضله كعلمه، والكمال لله وحده».

وقال أيضا: «بقى علينا أن نذكر وصفا لو سـكتنا عنه سـئلنا عن إغفاله. وهو أنه كان فى مصر يتوسـع فـى إتيان بعض المباحات، كالجلوس فى المتنزهات العامة والأماكن المعدة لراحة المسافرين وتفـرج المحزونيـن لكن مع غاية الحشـمة وكمـال الوقار، وكان مجلسـه فى تلك المواضع لا يخلو من الفوائد العلمية، فكان بعيدًا عـن اللغـو منزهًا عن اللهـو، وكان يوانيه فيها كثيـر من الأمراء وأربـاب المقامات العالية وأهل العلم، وهذا الوصف ربما عده عليه بعض حاسديه، لكن الله يحب أن تؤتى رخصه، كما يحب أن تؤتى عزائمه، وأى غضاضة على المرء المؤمن فى أن يخرج بعض همه بما أباح الله له، هذا مجمل من أحوال السيد جمال الدين الأفغانى أتينا به دفعًا لما افتراه عليه الجاهلون، ولو سـلكنا فى تاريخه مسـلك التفصيل لأدى بنا إلى التطويل».

وذكـر عنه الأمير شـكيب أرسـلان أنـه كان يعظم نفسـه عن الشـهوات، ولا يرى من اللـذات إلا اللذات العقليـة العالية، وأن

السلطان عبد الحميد حاول أن يعلق قلبه بالمال والبنين، ويشغله بزينة الدنيا، وراوده على الزواج، فأبى وأعرض، وكان ينظر إلى المال نظرة إلى التراب، فلا يدخره، ولا يتناول منه إلا ما هو ضرورى للحياة، وحاول السلطان أن يعطيه رتبة علمية كرتبة قاضى عسكر مثلاً، فأبى أن يقبل الرتبة وأن يلبس كسوتها المزركشة بالقصب، وكذلك رفض قبول أى وسام مهما كان عاليًا.

وقال عنه (أديب إسحاق) وكان من تلاميذه «عرفت صاحب الترجمة بمصر وكنت من مريديه ومحبيه طول مدة الإقامة بالمحروسة (القاهرة) والإسكندرية. إنه أسمر اللون، ربعة ممتلىء، قوى البنية، جذاب النظر، نافذ اللحظ، خفيف العارضين، مسترسل الشعر، بجبة وسراويل سوداء تنطبق على الكاحلين، وعمامة صغيرة بيضاء على زى علماء الآستانة، عزب، عفيف النفس، قانت. كثير القيامن لا ينام إلا الغلس إلى الضحى، ولا يأكل غير مرة واحدة فى اليوم، على أنه يكثر من شرب الشاى والتدخين، قوى العارضة طويل الحجة، واسع المحفوظ، نبيه يكاد يكشف حجب الضمائر ويهتك أستار الستائر، ولكنه على فضله، لا يسلم من حدة المزاج».

علو نفسه

ويلوح لنا أن أبرز صفة فى جمال الدين علو النفس، ولعلها الصفة الجامعة التى تصدر عنها صفاته الأخرى وأخلاقه؛ وقد احتفظ

بها فى أشد الأوقات حرجًا، ولازمته عند اشتداد المحن، وتعاظم الخطوب، مما دل على أنها غريزة طبعت عليها نفسه العالية، وحسبك دليلًا على ذلك ما كان من موقفه حين نفى من مصر فى أوائل عهد الخديو توفيق، فقد أنزل إلى البحر فى السويس خالى الجيب، فجاءه قنصل إيران فى ذلك الثغر، وكان معه جماعة من الماسونية، ومعه نفر من تجار العجم، وقدموا إليه مقدارًا من المال على سبيل الهدية أو القرض الحسن، فأبى أن يأخذ منه شيئًا، وقال لهم «احفظوا المال فأنتم إليه أحوج، إن الليث لا يعدم فريسته حيثما ذهب».

وهذه الكلمة وحدها تصور لنا شخصية جمال الدين وعظمته النفسية، وتصلح أن تكون عنوانا لتاريخه المجيد.

عقيدته

قال الأستاذ الإمام عن مذهبه وعقيدته «أما مذهب الرجل فحنيفى حنفى، وهو وإن لم يكن فى عقيدته مقلدًا، لكنه لم يفارق السنة الصحيحة، مع ميل إلى مذهب السادة الصوفية ﷺ، وله مثابرة شديدة على أداء الفرائض فى مذهبه، وعرف بذلك بين معاشريه فى مصر أيام إقامته بها، ولا يأتى من الأعمال إلا ما يحل فى مذهب إمامه، فهو أشد من رأيت فى المحافظة على أصول مذهبه وفروعه، أما حميته الدينية فهى مما لا يساويه فيها أحد، يكاد يلتهب غيرة على الدين وأهله».

الرد على الدهريين

تدل رسالته فى (الرد على الدهريين) على أنه مؤمن صادق الإيمان، يدعم العقيدة الإسلامية على أسس المنطق والحكمة العقلية، فهو فيلسوف من فلاسفة الإسلام الأعلام.

وسبب وضعه لهذه الرسالة أنه كان فى الهند طائفة تعتنق مذهب الدهريين وتسمى (النتشرية) وهى كلمة إنجليزية نسبة إلى Nature ومعناها الطبيعة، وقد ترددت هذه الكلمة حين إقامة جمال الدين فى حيدر أباد، وسأله الأستاذ محمد واصل مدرس الفنون الرياضية بمدرسة الأعزة بحيدر أباد عن حقيقة هذا المذهب فى كتاب قال فيه «يقرع سمعنا فى هذه الأيام صوت «نيتشر» ويصل إلينا من جميع الأقطار الهندية، ولا تخلو بلدة من جماعة يلقبون بهذا اللقب (نيتشرى)، فما حقيقة النيتشرية وما مذهبهم وفى أى وقت ظهروا؟ فكان جواب جمال الدين تأليف رسالته (الرد على الدهريين).

وقد وضع الرسالة باللغة الفارسية التى كانت شائعة بين المسلمين من الطبقة المثقفة بالهند، ونقلها الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده إلى اللغة العربية أيام كان منفيًّا ببيروت عقب إخماد الثورة العرابية، ويفهم من مقدمة الأستاذ الإمام لترجمة الرسالة أن حكومة الهند الإنجليزية كانت تمد للدهريين فى حبل الغواية

لتزلـزل عقائد الأمة فـى الدين وتضعف من مقاومتها للاسـتعمار البريطانى، وتلك سياستها فى مختلف البلدان، قال الأستاذ الإمام فى مقدمة الترجمة «نحمد الله على الهداية، ونعوذ به من الغواية، ونصلى ونسلم على خاتم رسله، وآله وصحبه هداة سبله، وبعد فقد أتيح لى الاطلاع على رسـالة فارسية فى نقض مذهب الطبيعيين من تصنيف العالم الكامل، محيط المعرفة الشـامل الشيخ جمال الدين الحسينى الأفغانى، أما الشـيخ فله من لسان الصدق ورفيع الذكر، مـا لا يحتاج معـه إلى الوصف، وأما الرسـالة فعلـى إيجازها قد جمعت لإرغام الضالين، وتأييد عقائد المؤمنين، مالم يجمعه مطول فـى طوله وحوت من البراهين الدامغة والحجج البالغة ما لم يحوه مفصل على تفصيله، دعاه إلى تصنيفها حمية جاشـت بنفسـه أيام كان فـى البلاد الهندية، عندما رأى حكومة الهند الإنجليزية تمد فـى الغى جماعة من سـكان تلك البلاد، إغراء لهـم بنبذ الأديان، وحل عقود الإيمـان، وإن كثيرًا من العامة فتنوا بآرائهم، وخدعوا عـن عقائدهـم، وكثر الاسـتفهام منه عـن حقيقة مـا تدعيه تلك الجماعة الضالة، وممن سـأله فى ذلك حضرة الفاضل مولاى محمد واصـل مدرس الفنون الرياضية بمدرسـة الأعزة بمدينة حيدر أباد الدكن من بلاد الهند، فأجابه الشـيخ برقيم صغير يعده فيه بإنشاء رسالة فى بيان ما كثر السؤال عنه، وقد حدانى علو الموضوع وسمو

منزلة الرسالة عنه إلى الاجتهاد فى نقلها من لغتها إلى اللغة العربية، فتم لى ذلك بمساعدة عارف أفندى الأفغانى تابع الشيخ المؤلف ورجونا بذلك تعميم الفائدة وتكميل العائدة إن شاء الله»[1].

وأهم ما فى الرسالة إثبات قيمة الدين وضرورته للإنسان وأثره فى رقيه وتقدمه، وأثر الإلحاد فى انحطاطه.

وهى تفنيد لمذهب الدهريين. وبيان مفاسدهم. وإثبات أن الدين أساس المدنية وأن الكفر فساد للعمران.

وخلاصة رأى السيد أن الدين أكسب عقول البشر ثلاث عقائد، وأودع فى نفوسهم ثلاث خصال. كل منها ركن لوجود الأمم، وعماد لبناء هيئتها الاجتماعية، وأساس محكم لمدينتها، وفى كل منها حافز يحث الشعوب على التقدم لغايات الكمال والرقى إلى ذرى السعادة، ومن كل واحدة وازع قوى يباعد النفوس عن الشر. ويزعها عن مقارفة الفساد.

العقيدة الأولى: التصديق بأن الإنسان ملك أرضى وأنه أشرف المخلوقات، والثانية يقين كل ذى دين أن أمته أشرف الأمم، وكل مخالف له فعلى ضلال وباطل، والثالثة يقينه بأن الإنسان إنما ورد هذه الدنيا لتحصيل كمال يهيئه للعروج إلى عالم أرفع وأوسع من هذا العالم الدنيوى، والانتقال من دار ضيقة الساحات كثيرة المكروهات، جديرة بأن تسمى بيت الأحزان وقرار الآلام، إلى دار

(١) ص ٢ من رسالة الرد على الدهريين.

فسيحة الساحات، خالية من المؤلمات، لا تنقضى سعادتها، ولا تنتهى مدتها، وبين أثر هذه العقائد فى وعى الإنسان.

أما الخصال الثلاث فهى: الحياء. والأمانة. والصدق.

وأوضح جمال الدين أن هذه الأسس التى أتت بها الأديان هى علة العمران، وعليها تتوقف سعادة الإنسان، وأن الماديين أو الدهريين أو النيتشريين تؤدى تعاليمهم إلى إنكار هذه الأسس، فتنزل الإنسان منزلة الحيوان، وتفقده الباعث على الخير، وتعده لحياة جامدة ضيقة لا قلب لها، ولا سمو فيها، وفى هذا انتكاس لخلقه، وهدم لكيانه، وحرمان مما أعده الله له.

وقال عن تأثير الإيمان بالله: ولم يبق للشهوة قامع، ولا للأهواء رادع إلا الأمر الرابع أعنى الإيمان بأن للعالم صانعًا عالمًا بمضمرات القلوب، ومطويات الأنفس، سامى القدرة واسع الحول والقوة مع الاعتقاد بأنه قد قدر للخير والشر جزاء يوفاه مستحق فى حياة بعد هذه الحياة، وفى الحق أن هاتين العقيدتين وازعان قويان يكبحان النفس عن الشهوات ويمنعانها عن العدوان ظاهره وخفيه وحاسمان صارمان يمحوان أثر الغدر ويستأصلان مادة التدليس، وهما أفضل وسيلة لإحقاق الحق والتدقيق عن الحد، وهما مجلبة الأمن ومتنسم الراحة، وبدون هذين الاعتقادين لا تقرر هيئة للاجتماع الإنسانى ولا تلبس المدنية سربال الحياة، ولا يستقيم نظام المعاملات، ولا تصفو صلات البشر من شائبات الغل وكدورات الغش فلو خويت القلوب من هاتين العقيدتين لسكنتها شياطين الرذائل، وسدت

عليهـا طرق الفضائـل، ومن أين لمنكر الجزاء أن يكف نفسـه عن خيانـة أو يترفع بهـا عن كذب وعذر وتملق ونفـاق، وقد تقرر أن العلة الغائبة لأعمال الإنسـان إنما هى نفسـه وكما سـبق، فإن لم يؤمن بثواب وعقاب وحسـاب وعتـاب فى يوم بعد يومه، فما الذى يمنعـه عن ذمائم الفعال، خصوصًا إذا تمكـن من إخفاء عمله وأمن من سوء عاقبته فى الدنيا أو رأى منفعته الحاضرة فى ركوب طريق الرذيلة والعدول عن سنن الفضيلة، وأى حامل يحمله على المعاونة والمرادفـة والمرحمـة والمروءة وعلـو الهمة وما يشـبه ذلك من الأخـلاق التى لا غنى للهيئة الاجتماعية عنها، ولئن وجد فى أحد الجاحدين شـىء من مكارم الأخلاق بمقتضـى الغريزة لكان عرضة للفساد أو كان أبتر ناقصًا لفقد ما عده من سائر صفات الكمال.

وبين أن فى الإسلام قواعد محكمة تميزه على سائر الأديان.

أولها: صقل العقول بصقال التوحيد، وتطهرها من لوث الأوهام، فمن أهم أصوله الاعتقاد بأن الله منفرد بتصريف الأكوان يتوحد فى خلـق الأفعال، وأن من الواجب طرح كل ظن فى إنسـان أو جماد – علويًا كان أو سفليًا – يكون له فى الكون أثر من نفع أو ضر أو إعطاء أو منـع، أو إعـزاز إو إذلال.. أو نحو ذلك من خرافات، كل واحدة منها كافية فى أعماء العقول وطموس أنوارها.

وثانيها: أن الإسـلام فتح أبواب الشرف للأنفس كلها، وأثبت لـكل نفس الحق فى السـمو، ومحـق امتياز الأجنـاس، وتفاضل الأصناف، وقـوم الناس بالكمـال العقلى والنفسـى، فالناس إنما

يتفاضلـون بالعقل والفضيلة، لا بأى شـىء آخـر، وقد لا نجد من الأديان الأخرى ما يجمع أطراف هذه القاعدة.

وثالثها: أن الإسـلام يكاد يكـون منفردًا بيـن الأديان بتقريع المعتقديـن بلا دليل، وتوبيخ المتبعيـن للظنون، فهو كلما خاطب خاطب العقل، وكلما احتكـم احتكم إلى العقل، تنطق نصوصه بأن السعادة من نتائج العقل والبصيرة، وأن الشقاء والضلالة من لواحق الغفلة وإهمال العقل وانطفاء نور البصيرة.

ورابعها: أن الإسـلام أوجب تعليم سـائر الأمة وتنوير عقولها بالمعـارف والعلوم، وفرض نصـب المعلم ليؤدى عمـل التعليم، وإقامـة المـؤدب الآمر بالمعـروف الناهـى عن المنكـر، فقال: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [سورة آل عمران: آية ١٠٤]. وقال ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾. [سورة التوبة: آية ١٢٢].

وعلـى هذه الأركان الأربعـة بنى الإسـلام، وكل ركن منها له الأثر البالغ فى تقويم المدنية وتشييد بناء النظام، وتدعيم السعادة الإنسـانية، وقد دارت حالة المسـلمين رقيًا وانحطاطا على حسب تمسكهم بهذه العناصر وتخليهم عنها.

علمه

قـال الأسـتاذ الإمام عن علمـه: «أما منزلته مـن العلم وغزارة المعـارف فليـس يحدها قلمـى إلا بنوع من الإشـارة إليها، لهذا

الرجل سلطة على دقائق المعانى وتحديدها وإبرازها فى صورها اللائقة بها، كأن كل معنى قد خلق له، وله قوة فى حل ما يعضل منها، كأنه سلطان شديد البطش، فنظرة منه تفكك عقدها، كل موضع يلقى إليه، يدخل للبحث فيه كأنه صنع يديه، فيأتى على أطرافه، ويحيط بجميع أكنافه، ويكشف ستر الغموض عنه، فيظهر المستور منه، وإذا تكلم فى الفنون حكم فيها حكم الواضعين لها، ثم له فى باب الشعريات قدرة على الاختراع، كأن ذهنه عالم الصنع والإبداع، وله لمس فى الجدل، وحذق فى صناعة الحجة، لا يلحقه فيها أحد، إلا أن يكون فى الناس من لا نعرفه، وكفاك شاهدًا على ذلك أنه ما خاصم أحدًا إلا خصمه، ولا جادله عالم إلا ألزمه، وقد اعترف له الأوربيون بذلك بعد ما أقر له الشرقيون، وبالجملة فإنى لو قلت إن ما آتاه الله من قوة الذهن، وسعة العقل، ونفوذ البصيرة، هو أقصى ما قدر لغير الأنبياء، لكنت غير مبالغ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم».

وقال أديب إسحق عن ذكائه: «ومن عجائب ذكائه أنه تعلم اللغة الفرنسية أو بعضها حتى صار يقدر على الترجمة منها، ويحفظ من مفرداتها شيئًا كثيرًا، فى أقل من ثلاثة شهور بلا أستاذ إلا من علمه حروف هجائها فى يومين، وكان يتتبع حركة المعارف الأوربية والمكتشفات العصرية، ويلم بما وضع أهل العلم وما اخترعوه جديدًا حتى كأنه قرأ العلم فى بعض مدارس أوربا العالية».

وكان يعرف من اللغات الأفغانية والفارسية والعربية والتركية والفرنسية جيدًا. واسع الاطلاع فى العلوم العقلية والنقلية. وخاصة الفلسفة. كثير المطالعة. لم يفته كتاب ألف فى تاريخ الأمم وآدابها وفلسفتها إلا طالعه.

مجلسه

كان حين إقامته بمصر يلقى الدروس فى داره، فكانت محط رجال العلماء والأدباء وأذكياء الطلبة، يقضى النهار فى بيته، فإذا جن الليل خرج يتوكأ على عصاه إلى قهوة اعتاد أن يجلس فيها أمام حديقة الأزبكية (قهوة متاتيا)، ويأخذ مكانه فى الصدر، وحوله تلاميذه ومريدوه، وفيهم الشاعر، والأديب، والعالم اللغوى، والطبيب والجغرافى، والتاريخى، والمهندس، وغيرهم من صفوة أهل الفكر والعلم، والوجاهة، فيفيض على محدثيه من بحر علمه.

يقول الأستاذ الإمام: «كان السيد جمال الدين يلقى الحكمة لمريدها وغير مريدها، ومن خواصه أنه يجذب مخاطبه إلى ما يريده وإن لم يكن من أهله، وكنت أحسده على ذلك؛ لأنها تؤثر فىَّ حالة المجلس والوقت فلا تتوجه نفسى بالكلام إلا إذا رأيت له محلاً قابلاً واستعدادًا ظاهرًا».

وقال سليم عنحورى عن محدثيه: «إنهم يتسابقون إلى إلقاء أدق المسائل عليه، وبسط أعوص الأحاجى لديه، فيحل عقد إشكالها

فردًا فردًا، ويفتح إغلاق طلاسمها ورموزها واحدًا واحدًا، بلسان عربي مبين، لا يتعلثم ولا يتردد، يتدفق كالسيل من قريحة لا تعرف الكلال، فيدهش السامعين، ويفحم السائلين، ويبكم المعترضين، ولا يبرح هذا شأنه حتى يشتعل رأس الليل شيبًا، فيقفل إلى داره، بعد أن ينقد صاحب المقهى كل ما يترتب له فى ذمة الداخلين فى عداد ذلك المجمع الأنيق».

اتساع أفقه السياسى والاجتماعى

كان واسع العلم فى المسائل السياسية والاجتماعية، يتحدث عنها فيبدى الرأى السديد الدال على الحكمة العالية، والمواهب الخلاقة، والتفكير العميق، والتجارب البعيدة الغور.

تأثير الفتح العربى فى الأمم

قال عن تأثير الفتح العربى فى الأمم وسبب انتشار اللغة العربية فيها: «بيان تأثير الوفود على قوم بأحسن مما ألفوه، وأنه أفعل الوسائل بعد القهر، لحكمهم، ولترك الأثر بينهم، يكفى النظر فى ظهور الإسلام وفتوحاته، حربًا كان أم صلحًا، وانتشاره فى أقل من عصر فى أعظم المعمور من الأرض، فقد عم جزيرة العرب، فالشام، فمصر، فالعراقين، فالهند، فأقصى الشرق، حتى (الآستانة)، وها هو قبر خالد أبى أيوب الأنصارى فيها، و«جامع العرب» فى «محلة غلطة» من أكبر الشواهد.

«نعم إن زحف العرب ووفودهم على البلاد إنما كان لتعميم الدعوة الدينية أولا، وإلا فأداء الجزية للدخول مع القوم فى حقيقة المساواة، وللقيام فى حفظ كيان المجموع، وكان من يقبل الإسلام لا إكراه عليه فى قبول العادات وتعليم اللسان، كذلك من أدى الجزية فلا إكراه عليه فى دينه، وباقى مميزاته، بل يبقى على مألوفه، ومؤثرات إقليمه، وخواصه، ولا خطر على قلب فاتح إسلامى أن يعمم آداب قومه ولسانهم أو أن يتخذ لذلك أقل الوسائل.

«إن كل من دان بالإسلام، أو رضى بدفع الجزية قد سارع عن طيب خاطر، وارتياح عظيم للتعرب، والسبب فى ذلك، أن وفود العرب حملت معها أخلاقا فاضلة ظهرت أفضليتها بأجلى المظاهر، مثل الأنفة من الكذب، والوفاء بالعهد، ومطلق العدل، وكمال الحرية والمساواة الحقيقية بين الملك والرعية، وإغاثة الملهوف، والكرم، والشجاعة وباقى الفضائل من الهيئات المتوسطة بين الخلال الناقصة.

«وأمر طبيعى ما لهذه الفضائل والصفات من السلطة الأدبية على من يتخلق بها، لأن الإنسان إنما ينفعل بروحه وشعوره - والانتخاب الطبيعى فطرى فى الحيوان، وأشده ظهورًا ووضوحًا فى الإنسان، لذلك انعطفت قلوب الأمم، على استحسان الوافدين من العرب لبلادهم، سواء البلاد التى فتحت عنوة، ووضعت فيها الحرب أوزارها، أو صلحًا. وأول مقدمات العادة الاستحسان، ثم المزاولة حتى ترسخ ملكه.

«والاعجـاب بآداب قوم، باعث على حب التقرب منهم، وأعظم وسائل التقرب – التفاهم – فيتبارون فى تعلم اللسان، هكذا تم للعرب ورسـخ لهم فى معظم ما فتحوه من الأمصار والبلدان والممالك، آثار أدبية فضلاً عن الآثار العمرانية، من لسان وعادة، وأخلاق لم يمكن اسـتئصالها، بل بقيت رغم أنوف من دال من بعدهم من الدول ومن هيئـات الحكومات المختلفة، فمصر بينمـا هى هرقلية رومانية، و(المقوقـس) عامل له فيها، أصبحت فى قليل من الزمن إسـلامية فى الأغلبيـة، عربية بالصورة المطلقة، فى كافة مميزات العرب، وهكذا القول فى سورية والعراق، وغيرهما بدون أن يبذل فى سبيل ذلك التغيير أدنى مسعى، أو يستعمل له أقل الوسائل كما ذكرنا.

«نعم إن أكبر حامل، وأفعل عامل، على تعريب أولئك الأقوام هو الفضائل الأخلاقية، والصفات العالية، التى كانت تأتى بها العرب مع بأسهم وشجاعة أبطالهم».

كان واجبا على الترك أن يجعلوا اللغة العربية لغة الدولة الرسمية

جاء جمال الدين بالآسـتانة أديب تركى، وأطلعه على مذكرات مخطوطـة للمؤرخ التركى ضيا باشـا، يعترف فيهـا بأن الترك لم يخلفوا فـى البلاد التى فتحوها آثار حضـارة وعمران، مثلما ترك العرب من آثار مادية وأدبية لا يقوى الدهر على ملاشاتها، ويقول: إن المسلم والمسيحى واليهودى فى مصر والشام والعراق يحافظ كل

منهم قبل كل شيء على نسبته العربية فيقول إنه (عربى) ثم يذكر ديانتـــه، وأن آثار العرب المادية فى الأندلس لا تقل عن آثارهم فى باقى الأمصار. وأغرب من ذلك أن التركى والجركســى والأرناؤطى وغيرهم من العناصر غير العربية يستعرب متى وجد فى بلد عربى ويمتــزج بالمجموعة العربية حتى تخال أنه (عربى قح)، وأما فى حكمنا فلم نســتطيع أن نســتترك أدنى فئة ممن حكمناهم من الأمم بكمال العدل الإسلامى والسماح التركى ولين الجانب (كذا).

هــذا ملخص مــا حوته مذكرات ضيا باشــا، وقد ســأل الأديب التركى الســيد جمال الدين عن رأيه فــى تعديل هذه الظاهرة فقال ما خلاصته: إن المرحوم ضيا باشا أشكل عليه الأمر حين اعتقد أن الأتراك شــابهوا العرب تمامًا بعنى أنهم دخلوا فى دين الإســلام، ولكن فاته أن لكل دين لســانًا، ولسان الإسلام هو (العربية)، ولكل لســان آداب، ومن هذه الآداب تحصل ملكة الأخلاق، وعلى حفظها تتكون العصبية، فالأتراك أهملــوا أمرًا عظيمًا وحكمة نافعة قالها الســلطان محمد الفاتح، وأحب أن يعمل بها السلطان (سليم)، وهى جعل اللســان العربى لســان الدولة العثمانية وتعميمه بين من دان بالإســلام من الأعاجم ليفقهوا أحكامه ويمشــوا على سنن الارتقاء بعلومه وآدابه، ومكارم أخلاقه، ومحاسن عوائد أهله.

فالعرب ما نجحوا بفتوحاتهم وبشــكل الدين الظاهرى فقط، بل بفهم أحكامه، والعمل بآدابه، وذلك ما تم ولا يتم إلا باللسان وهو أهم الأركان.

ولقد قام السلاطين من آل عثمان بفتوحات جليلة، وقربوا إليهم من كان فى عصرهم من فحول العلماء من المسلمين وقد تفردوا إذ ذاك بمعرفة اللسان العربى، وبعض علومه، عرف أولئك الفحول قدر اللسان العربى، وغالوا فى التقدير حتى إنهم كانوا (على ما قيل) لا يعطون وظيفة علمية إلا لمن يحفظ قاموس (الفيروز أبادى) العربى، وبقى الترك فى فتوحاتهم على هذه الصورة، وفى مجموعهم به بداوة صرفة، لم يتخذوا غير القوة المادية آلة، ولم ينقلوا سواها للبلاد، إنهم تدينوا بالإسلام على أبسط حالاته وأشكاله، ولكن على بعد سحيق من فهم معانى القرآن وآداب اللسان العربى، والعرب لو كانوا مثلهم لما استطاعوا أن يكونوا أحسن أثرًا منهم، ولما كان لهم حضارة ولا مدنية، ولبقوا على بداوتهم، همهم فتح البلاد للاستغلال، وجمع الأموال للرفاه والترف، أو للبذخ والسرف.

إلى أن قال: أما انتشار اللسان العربى فى غير بلاد العرب، فليس للفاتحين أدنى دخل فيه، ولا اتخذوا له أسبابا، بل إن ما وجد فى اللسان العربى من الآداب الباهرة، والحكم والأمثال والمواعظ، هو الذى أحله من الانتشار هذا المحل، حتى إن العرب قبل الإسلام وهم فى تلك الحالة الجاهلية، والبداوة المحضة، وبعدهم عن كل حضارة، كانوا يحلون بآداب لسانهم من أعظم الملوك مثل كسرى أنوشروان، محلاً رفيعًا، ويأخذون الجوائز، ويثرون بتجارتهم مع الأعاجم بآداب لسانهم، وما يجرى على ألسنتهم من الحكمة التى

تأخذ بمجامع القلوب، هكـذا كان الذكاء العربى الفطرى المتوقد، يناسبه سلاسة اللسان وأدبه، فكان إذ ظهر بين العرب حكيم طبيب مثل (الحارث بن كلدة) مثلاً، اسـتطاع بآداب اللسـان وفرط الذكاء أن يقـارع ويضـارع أكبر حكيم من الفرس مـع حضارته ومدنيته، وكذلك الشـاعر فى قبيلته إذا نبغ أجلته القبيلة، واعتبرته حامى ذمارها بأدبه وشـعره، وأغنته بالمال والماشية، وأما فى الحضارة الإسـلامية، وفى دولهـا، فكثير ممن برع فـى الأدب فأوصله إلى مرتبة الوزارة فالإمارة.

هذا بعض ما لآداب اللسـان مـن التأثير المـادى. وأما التأثير المعنوى فيكفى أنه من أكبر الروابط التى تجمع الشـتات، وتنزل من الأمـة منزلة أكبر المفاخر، فكم رأينا مـن دول اغتصب الغير ملكها، فحافظت على لسـانها حكومة، وترقبت الفرص، ونهضت بعد دحر فردت ملكها، وجمعت إليها من ينطق بلسانها، والعامل فى ذلك إنما هو اللسان، قبل كل ما سواه، ولو فقدوا لسانهم لفقدوا تاريخهم، ونسوا مجدهم، وظلوا فى الاستعباد إلى ما شاء الله.

وقال فى موضع آخر «لننظر فى فتوحات الدولة العثمانية للممالك الإسلامية، من مصر والشام، فحلب، بغداد، فتونس وسائر الممالك العربية، فنراها قد تمكنت من الفتح مع قليل من المقاومة والحروب، وكان لجامعة الدين التأثير العظيم فى قبول الحكم العثمانى، ولو أن الدولـة قبلت من يوم اسـتقلالها، وعملت من عهد السـلطان محمد الفاتح، أو السـلطان سليم، باتخاذ اللسان العربى – وهو لسان الدين

– لسانًا رسميًا وسعت بكل قوتها وجهدها لتعريب الأتراك، لكانت فـي أمنع قوة، وآمن حصن من الانتفاض، والخروج على سـلطانهم، ولكنهـا فعلت العكس، إذ فكـرت فى تتريك العرب وما أسـفهها سياسـة، وأسـقمه من رأى، لأن تدين الأتراك بالدين الإسلامى على جهل باللسان العربى، جعل فى القلوب منزلة – ساقت وتسوق الأمة العربية للعطف عليهم مع سـائر المسـلمين، فمـا قولك لو تعرب، وانتفـى مـن بين الأمتيـن، النعرة القوميـة – وزال داعـى النفور والانقسـام «بالتركى وبالعربى» – وصـاروا أمة عربية – بكل ما فى اللسـان من معنى، وفى الدين الإسـلامى من عدل، وفى سيرة أفاضل العرب من أخلاق، وفى مكارمهم من عادات، لا ريب لو تيسـر ذلك لكان إعادة عصر الرشـيد للمسـلمين ميسورًا – وجمع شتات الممالك الإسـلامية تحت لواء سـلطان عادل، همام مثل الفاتح، أو السلطان سـليمان، أو السلطان سـليم غير عسـير، ولكن مع الأسف كان عدم قبول فكرة السلطان الفاتح، أو السلطان سليم لتعميم اللسان العربى – خطأ بينًا – لا يضارعه إلا توغل العثمانيين فى أوربا، وشبه جزيرة البلقان، وجعل القسطنطينية عاصمة السلطنة والخلافة».

ماهية الجزية

قال جمال الدين فى تفسـيرها: إن أهل الكتاب خيرهم الإسلام بين أحـد أمرين: إما الاشـتراك بأداء الجزيـة وفيه صلاح الأمر

الدنيـوى للكافـة، والمقصد الأعلـى من هذا صـون النفوس وعدم سـفك الدماء بقليل مـن مال يؤخذ ينصرف فـى المنافع والمصالح المشـتركة، وفى تعزيز قوة المجموع، وكذلك يدخل به مع القوم فى ساحة مسـاواة حقيقية، له ما لهم وعليه ما عليهم، ولا إكراه عليه فى دينه بل يكون مصانًا فى شعائره وأصول عباداته وعاداته من كل أذى.

وإما أن يختار الإسـلام فيشـارك القوم فى العاجل من دنياهم، وسـلطانهم، وفى كل مـا حوته أخراهم من نعيـم مقيم، والغرض الأسمى فى الحالتين كما ترى هو عدم سفك الدماء ووقاية ذلك البناء الإلهى من الهدم، بل يتجسـم فيه طلب الهداية لعبادة إله واحد، وتأسيس العدالة، وتوزيع الحق.

لذلك ترى أن كل مصر أو قطر دان بالإسلام، أو دخل فى حوزته خيم فوق ربوعه السلام، ورتع أهله فى بحبوحة من العدل المطلق، وسـاد فيه الأمـن والأمان وحصلت المسـاواة على أصـح وجوهها باعتراف كل منصف غربى مثل سبنسـر أو كارلايل وغيرهما، ممن قالوا الحـق ونطقوا بالصدق، وهذا كله لا يشـبه بصورة من الصور حروب أهل المدنية الغربية الحاضرة التى يشـب ضرامها لتوسيع نطـاق البلاد بالإلحاق، أو بالاسـتعمار، والنتيجة اسـتعباد الأمم تحت تلك الصور.

إنكاره على من يقول بسد باب الاجتهاد

عــرف جمال الدين بنفوره مــن التقليد والجمــود، فكان يأخذ بالأحسن من الأقوال، ويرد الضعيف منها، ويجتهد فى الاستنباط، ويتناول الأقرب للصواب وما يقبله العقل.

ذكروا يومًا فى مجلســه قــولاً للقاضى عياض فى ذلك، واتخذوه حجة واشــتد تمســكهم بذلك القول.. حتى أنزلوه منزلة الوحى، فقــال جمال الدين: «يا ســبحان الله. إن القاضى عياض قال ما قاله على قدر ما وســعه عقله، وتناوله فهمه، وناســب زمانه، فهل لا يحق لغيــره أن يقول ما هــو أقرب للحق وأوجــه، وأصح من قول القاضى عياض أو غيره من الأئمة، وهل يجب الجمود والوقوف عند أقوال الناس؟ إنهم هم أنفسهم لم يقفوا عند حد أقوال من تقدمهم، لقد أطلقوا لعقولهم ســراحا فاســتنبطوا، وقالوا، وأدلوا دلوهم فى الدلاء، فى ذلك البحر من العلم وأتوا بما ناسب زمانهم وتقارب مع عقول جيلهم، وتتبدل الأحكام بتبدل الزمان».

ولمــا قيل له إن ذلــك يعد اجتهادًا، وبــاب الاجتهاد عند أهل السنة مسدود لتعذر شروطه.

فتنفس جمــال الدين الصعداء وقال: «مــا معنى باب الاجتهاد مســدود؟ وبأى نص ســد باب الاجتهاد؟ وأى إمام قــال لا ينبغى لأحد من المسلمين بعدى أن يجتهد ليتفقه فى الدين، أو أن يهتدى بهدى القــرآن، وصحيح الحديــث، أو أن يجد ويجتهد لتوســيع

مفهومه منهما، والاستنتاج بالقياس على ما ينطبق على العلوم العصرية، وحاجايات الزمان وأحكامه، لا ينافى جوهر النص.

إن الله بعث محمدًا رسولاً بلسان قومه (العربى) ليفهم ما يريد إفهامهم، وليفهموا منه ما يقوله لهم ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ ﴾ [سورة إبراهيم آية: ٤]، وقال ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ۝٢ ﴾ [سورة يوسف آية: ٢]، وفى مكان آخر ﴿ إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ۝٣ ﴾ [سورة الزخرف آية: ٣]، فالقرآن ما أنزل إلا ليفهم ولكى يعمل الإنسان بعقله لتدبر معانيه وفهم أحكامه والمراد منه، فمن كان عالمًا باللسان العربى، وعاقلاً، وعارفًا بسيرة السلف، وما كان من طرق الإجماع، وما كان من الأحكام مطبقًا على النص مباشرة، أو على وجه القياس، وصحيح الحديث، جاز له النظر فى أحكام القرآن وتمعنها، والتدقيق فيها، واستنباط الأحكام منها، ومن صحيح الحديث والقياس، ولا أرتاب فى أنه لو فسح أجل أبى حنيفة، ومالك، والشافعى، وأحمد بن حنبل، وعاشوا إلى اليوم، لداموا مجدين، مجتهدين يستنبطون لكل قضية حكمًا من القرآن والحديث، وكلما زاد تعمقهم وتمعنهم ازدادوا فهمًا وتدقيقًا.

«نعم إن أولئك الفحول من الأمة، ورجال الأمة، اجتهدوا وأحسنوا (جزاهم الله عن الأمة خيرًا)، ولكن لا يصح أن نعتقد أنهم أحاطوا بكل أسرار القرآن، أو تمكنوا من تدوينها فى كتبهم، والحقيقة أنهم مع ما وصلنا من علمهم الباهر، وتحقيقهم واجتهادهم، إن

هو بالنسبة إلى ما حواه القرآن من العلوم، والحديث الصحيح من السنن والتوضيح، إلا قطرة من بحر، أو ثانية من دهر و«الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء من عباده». وعلمهم ما لم يكونوا يعلمون»[1].

الإسلام والإشتراكية

قيل لجمال الدين: إن خير ما في أوربا من النهضة هو السوسياليزم Socialisme (الاشتراكية) وهي التي ستؤدى حقًّا مهضوما لأكثرية الشعب العامل، فما رأيكم وهل من تعارض بينها وبين الإسلام؟.

فقال جمال الدين ما خلاصته: إن ما تراه من الاشتراكية في الغرب، وما تتوخاه من المنافع بذلك المذهب، في شكله الحاضر وأسسه، وتخبطواضعي مبادئه - كل ذلك يعكس نتائج الاشتراكية، ويجعلها محض ضرر بعد أن كان المنتظر منها كل نفع.

«الاشتراكية الغربية» ما أحدثها، وأوجدها إلا حاسة الانتقام من جور الحكام، عوامل الحسد من العمال لأرباب الثراء - الذين إنما أثروا من وراء كدهم وعملهم، وادخروا كنوزهم في الخزائن، واستعملوا ثروتهم في السفه وبذلوها في السرف، والتبذير،

(١) راجع (خاطرات جمال الدين الأفغاني) لمحمد المخزومي وكتاب (جمال الدين الأفغاني. تاريخه ورسالته) وكتاب (صيحة جمال الدين الأفغاني التي بعثت الشرق من سباته وبصرته بحقوقه وواجباته) لمحمود أبو رية.

والترف – على مرأى من منتجها، والفاعل العامل فى استخراجها من بطـون الأرض، ومن ترابها و... و... إلخ، وبالاختصار ثمرات عمل العامل بكل أنواع حاجة العمران.

«فـكل عمل يكون مرتكـزًا على الإفراط لابـد أن تكون نتيجته التفريـط. «أفرط الغربيون (الأغنياء) فى نبذ حقوق العمال والفقراء وراء ظهورهـم، فأفرط العمال فى مناهضة أهـل الثروة، وغاصبى حقوق الأمة – بالمناصب ومسببات الجاه – فلا قاعدة دينية يرجع إليها، ولا سـلطان وازع يعمل بقهر لصالـح المجموع، لذلك أصبح أمرهم فى الاشتراكية «فوضى» ولسوف ينعكس أمرها.

«أما الاشتراكية فى الإسـلام» فهى ممتزجة بالدين الإسلامى، ملتصقة بخلق أهله منذ كانوا أهل بداوة، جاهلية.

«فـأول من عمل بالاشـتراكية بعـد التدين بالإسـلام هم أكابر الخلفاء من الصحابة – وأعظم المحرضين على العمل بالاشـتراكية هم كذلك من أكابر الصحابة أيضًا – وإليك البيان:

«أما أن الاشـتراكية من خلق البـداوة فالبرهان عليه ما كان من أهل الثراء منهم، ومواسـاتهم لأهل قبيلتهم وعشـيرتهم، ولا أعد كثيرا من ذلك بل أجتزئ بمن اشـتهر منهم، مثل حاتم الطائى فى السنين المجدبة وكيف أنه نحر ما لديه (وهو فرسه) لمجرد امرأة مـن أقصى قبيلة طيئ إذ قالت له: يـا حاتم قيل لنا إن عندك لحمًا ذبيحًا فأتيت بصبيتى.

فقال «صدقت»، ثم نحر فرسه، وأشعل ناره (تلك العلامة التى كانت كدعوة للمجموع يعلمون أن هناك طعامًا ما) فيأتون لمكان الدخان فى النهار، ولشعلة النار قليلاً، ويشتركون جميعهم فى المأكل دون أدنى منة لصاحبها، لأن الأمر بينهم مناوبة يفعله الميسور، والثرى كل على نسبته وما لديه من سعة، وقد تواتر الخبر بأن حاتمًا لم يذق من ذلك اللحم شيئًا مع كونه قرما، سغبا[1].

«هذا مثل من الاشتراكية قبل الإسلام ومنه يعلم أن الثروة كانت ولا تزال موجودة فى الأفراد ولكن حسن استعمالها، وجعل نصيب للآخرين فيما يجعل الاشتراكية أمرًا مقبولاً، وصفة ممدوحة - إذ لا أنانية، ولا أثرة، ولا استطالة على الفقير - بينما موجد ومسبب ومهيىء تلك النعم كلها - هو ذلك العامل الفقير. الذى يسكن كوخًا صغيرًا».

«هذا ما عليه اليوم أهل الثروة فى الغرب، وهذا ما استنفر طبقة العمال للمطالبة بالاشتراكية - وفى نفيرهم روح الانتقام، والإفراط فى المطالبة بحقهم يقابله التفريط فى زجرهم، وعدم الرضوخ لما يطلبونه من الحق ولسوف يتفاقم الخطب، وتعم من جراء ذلك البلوى فى الغرب، ولا يسلم منها الشرق.

«أما الاشتراكية فى الإسلام، فهى خير كافل لجعلها نافعة مفيدة، ممكنًا الأخذ بها لأن القرآن أشار إليها بأدلة كثيرة، منها

---

(١) القرم: الشديد الرغبة فى اللحم. والسغب: الجائع.

أن المسلم أول ما يقرأ من فاتحة الكتاب ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ﴾ [سورة الفاتحة: آية ٢]، فيعلم أن للخلق ربًّا واحدًا وهو مع سائر الخلق من المربوبين على السواء، ويرى، ويعلم أن القرآن أتى على ذكر أرباب القوة ورجال الحرب، والغزاة، ومن يتولى إمرتهم، وقيادتهم، فخاطبهم آمرًا، ومعلمًا، ومدافعًا، ومبينًا حقوق المستضعفين من الأمة الذين لم يتمكنوا من الاشتراك مع من ذكر ليكون لهم من ذلك الجهاد، وتلك المساعى نصيب إذ قال ﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٤١ ﴾ [سورة الانفال: آية ٤١].

هذه آية باهرة أوجبت على من يسعى مجاهدًا، ومخاطرًا بحياته أن يكون مشتركا معه فى نتيجة غزواته وغنائمه، من لم يكن مشتركًا فعلاً - فأعطى أولا «الله تعالى» نصيبا ومرجع ذلك النصيب لعباده - ثانيا «للرسول» ثالثا «لذوى القربى» وهم لا شك من المستضعفين الذين إنما قعدوا عن الاشتراك فى الجهاد، والسعى وراء الغنائم، لعلل تختلف أشكالها، وأنواعها، ولكن الدين لم يجز حرمانهم بل جعل لهم نصيبا من مساعى أولئك الأشداء، الأقوياء المجاهدين، الخائضين غمرات الموت. كل ذلك

نراه مبنيًا على حكمة الاشتراك، ولبث حكم هذه الآية جاريا، وكان الرضا به شاملاً لمجموع المسلمين، من مجاهد أو قاعد عن الجهاد لعلة، فبدأ بالدرجة الأولى بعد الله ورسوله بذوى القربى من المجاهدين على درجاتهم، وعطف على من دونهم فى المرتبة الثانية، ممن ليس لهم فى المجاهدين أقرباء، فقال «واليتامى»، ثم وسع نطاق الاشتراكية فقال «والمساكين»، ثم رأى أن يأخذ نطاقًا أوسع فقال «وابن السبيل»، أى عابره، فتم بهذا الشكل نوع من الاشتراكية لم يكن أوسع منه شكلاً، ولا أنفع، ثم جاء فى موضع آخر من الكتاب مقرعا لمن يكنزون الذهب والفضة، ثم حبذا وأثنى على الذين يؤثرون على أنفسهم بالعطاء والإسعاف والإطعام ولو كان بهم خصاصة.

وهكذا ترى قانون الاشتراكية المعقول فى آيات من القرآن تترى.

ثم قال: «لما كان مذهب الاشتراكية كبقية المذاهب والمبادئ، له طرفان رأى الشارع الأعظم أن تنعم فريق من قوم، وشقاء فريق آخر فى محيط واحد، وبمساع ليس بينها وبين مساعى الآخرين كبير تفاوت - مما لا يتم به نظام الاجتماع - وكان النبى ﷺ «بالمؤمنين رحيمًا» فجاءه عن طريق الوحى وهو نتيجة تمحيص نزعات النفس البشرية، وما عسى أن ينجم من المضار أو المنافع لها - فوضع للدين أركانًا خمسة، ومن تلك الأركان «فرض الزكاة»

فى المال، والركاز والأنعام.. إلخ. ثم أضاف إليها كما سبق «غنائم الحروب»، فأخذ منها قسطًا بمقدار الخمس - ثم بعد ذلك حرص على بذل «الصدقات».

* * *

هذا ما قاله جمال الدين الأفغانى عن الاشتراكية الإسلامية فالإسلام جعل الزكاة من أركانه ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾ [سورة الأنبياء: آية ٧٣].

فالزكاة هى الاشتراكية الإسلامية، وهى عماد العدالة الاجتماعية والفارق بينها وبين الاشتراكية الغربية أنها فى الغرب قد تطورت وتطرفت، وتولدت عنها الأحقاد والضغائن بين طبقات الشعب، وجعلت الأمن والنظام فى حاجة إلى حاكم بأمره يضع حدًّا لوقف الحرب بين الطبقات، أو يغلب طائفة المعدمين على طائفة الطبقة الموسرة والمتوسطة اليسار، فى حين أن اشتراكية الإسلام أساسها التعاون والتعاطف والتراحم وتجنيب البلاد ويلات حرب الطبقات.

والزكاة واجبة فى الأموال النقدية وفى عروض التجارة بنسبة (ربع العشر) ٢,٥٪ وتقدر بنحو ذلك فى غيرها، وهى ليست إحسانًا، بل هى فرض يلتزم به المواطنون بشروطه، وتشرف الدولة على تحصيله كشأن الضرائب العامة، وهو نظام اجتماعى سديد يبقى على الملكية الفردية وعلى النشاط الاقتصادى الفردى،

ويتدخل فى توزيع العدالة الاجتماعية بين الطبقات وتتولى الدولة صرف حصيلته على ما يحقق مصالح المواطنين جميعًا.

جواز الفائدة اليسيرة فى القروض

قال جمال الدين الأفغانى: إن الإسلام حرض على بذل الصدقات وحرم الربا بنكتة غاية فى الحكمة، وهى أن لا يؤكل الربا أضعافًا مضاعفة، وهو ما وقع عليه التحريم، ولكى يكون للإمام مخرج إذا اقتضت المصلحة التسامح للحكم بجواز الربا المعقول الذى لا يثقل كاهل المدين ولا يتجاوز فى برهة من الزمن رأس المال، ويصير أضعافًا مضاعفة، وفرق صراحة بين احتيال المرابين المتلبسين بالدين الذين يتظاهرون بتجنب الربا ببيعهم سلعة قيمتها الحقيقية مائة درهم يتجرون عند بيعها مع المشترى المضطر بثلاثمائة درهم، وحقيقة هذا الفرق ما هو إلا نصيب الربا وعينه، وإنما يجعلونه عن طريق البيع، ويخدعون أنفسهم بأنهم تخلصوا من ارتكاب جريمة الربا التى حظرها عليهم الدين، وإليك بعض ما جاء فى هذا الشأن من القرآن: ﴿ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰا۟ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰا۟ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا۟ ۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ ﴾ [سورة البقرة: الآيتان ٢٧٥-٢٧٦]

وقال ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ١٣٠ ﴾. [سورة آل عمران: آية ١٣٠].

ورأى الحكيم الأفغانى فى هذا الصدد قريب من رأى الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده الذى أفتى بأن أرباح صندوق التوفير بمصلحة البريد لا حرمة فيها وهى لا تتعارض مع تعاليم الدين فى شىء.

سخطه على الاستعمار
ودعوته إلى مقاومته والتحرر منه

قال جمال الدين يصف الاستعمار وأسبابه ومعناه وأهدافه والوسائل لمقاومته والتحرر منه:

«لقد برز الأوروبيون فى ضروب السياسة لتوسيع ممالكهم، وتفننوا فى إيجاد الوسائل المؤدية لذلك وكان أسبقهم فى الدهاء وأكثرهم فى الاستيلاء (الإنجليزى)، وهم فى مقدمة من رأى من دول الغرب - أن فتح البلاد، وتملكها بالجيوش، والكفاح والقتال من مزعجات الأمور وأن الدخول من باب المكر، واللين، والخديعة والختل، أوفر، وأسهل، وأقرب وأفعل، فاعتمدت هذا الأخير سلاحًا، ونالت به نجاحًا، وتركت الأول وهو (الحرب والقتال) وفتح البلاد غلبًا وقهرًا، ورجعت للثانى، وألبسته من الأسماء طيلسانًا لين الملمس، هين الملبس ودعته (بالاستعمار) ودعت ما يؤخذ من الممالك (مستعمرات)، وجرت فى هذا المضمار فكانت

(المجلى)[1] وحازت قصب السبق وتبعها غيرها من الدول فكانوا (السكيت)[2].

إن هذا الاستعمار لغة، واصطلاحًا، مصدرًا، واشتقاقًا. لا أراه إلا من قبيل أسماء الأضداد وهو أقرب إلى «الخراب» و«التخريب» وإلى «الاسترقاق». والاستعباد منه إلى العمار، والعمران.

لا تسير دول الاستعمار إلا إلى البلاد الغنية فى ثروتها ومعادنها، وخصب تربتها ومن كان أهلها فى الدرك الأسفل من الجهل، قد خيم عليهم الخمول، لا يبدون حراكًا، ولا يقربون عراكًا.

«وإذا صادفت دول الاستعمار (على طريق الشذوذ) فى بعض الممالك أو المقاطعات مقاومة من سلطان أو أمير، فما هى إلا مناوشة صغيرة مع تلك المعدات الحربية الحديثة - وقد سقط الملك، أو الأمير أسيرًا، فسيق مع أهل بيته ذليلًا، وحجر عليه فى أضيق البلدان، وأبعدها عن العمران، وتدخل المملكة أو الجزيرة أو المقاطعة وتنتظم فى سلك المستعمرات فيصبح أعزة البلاد أذلاء، ويحل محل الحرية الشخصية الاستعباد، وكم الأفواه - وينتصب الميزان، ليحاسب من تطرف عينه من الأهلين، أو يشخص ببصره، أو يلتفت إلى ورائه، ليس لأحد من خيرات بلاده شىء، وكل الضرائب، والضربات، والشر والويلات، لأهل البلاد وعليهم، لا يشاركهم فى ذلك أحد.

(١) المجلى: الفرس السابق فى الميدان.
(٢) السكيت: أحط مراتبها جريا.

«هـذا إذا كان الدخول للبلاد «بلعبة حربية» – وأما إذا دخلوها مـن باب الانتصار للأمير، أو تثبيت الملك، أو قمع الثورة، وكانوا في لباس الأصدقاء، الأمناء، المخلصين أو المحبين للشعب ورقيه، وتعليمـه دروس الحكـم الذاتي، ليسـتغني عنهـم ويحكم بلاده بذاتـه!! – فهناك تبقى مظاهر الأمـور محفوظة، وبعض التقاليد التافهة مأمونة، يشـكلون للأحكام، وإدارة مهام البلاد هياكل من النـاس. ويتركون معهم أمير البلاد قبـة جوفاء يرجع منها صدى الصوت فقـط، وليس له من الأمر إلا اتبـاع لا غير ومختصر القول – إن الاسـتعمار بمعناه الصحيح، ومبناه الصريح هو تسـلط دول، وشـعوب أقوياء علماء على شـعوب ضعيفة جهلاء ولا يخرج عامل الغلب، والقهر عما ذكرناه فيما سـبق وهو أن القوة والعلم يحكمان ويتحكمـان في الضعف والجهل، سـنة ثابتة، وقانـون متبع في الكون.

«ولمـا كان لحيـاة الأمـم والـدول – أدوار، وآجـال ولحدوثها وتكوينهـا، وتعاليها ثم توقفها وانحطاطها أسـباب وعوامل هكذا وجب أن يكون الاسـتعمار خاضعًا لتلـك النواميس الكونية بمعنى أنه يصل إلى حد محدود وأجل معلوم.

«وانقضاء أجل الاسـتعمار إنما يتم بزوال الأسـباب التي مكنت أهله من التسلط وأكرهت الشعوب على الخضوع لهم.

«نعم متى ضعف ما كان سببًا فى الصعود - يحصل الهبوط - والانحطاط - ومتى زال ما كان سببًا فى السقوط يحصل الصعود دور للحاكم والمحكوم، وقاعدة هى بحكم اللازم والملزوم.

«يحصل للضعيف من صدمة القوى «دهشة ورجفة». ويحدث من آثار العلم على الجاهل «خشية» فيقف بين هاتين القوتين منذهلًا، حائرًا، ذليلًا، صاغرًا كما هو الحال مع أهل الاستعمار، والمستعمرين، إذ يمر الدور الأول بين تجبر وتكبر، وعسف، وجور، وأهل المستعمرات قد أدهشتهم المفاجأة، وأذهلتهم الصدمة - فيقابلون كل قول بالسمع والطاعة ويفعلون ما يؤمرون بكمال الخضوع، فيصادرون فى معنوياتهم، من حرية شخصية، وعزة نفسية، وحرمة ملية، أو جامعة قومية، ثم يأتى دور القضاء على مادياتهم - فيحرمون من خيرات بلادهم، ومن كسب تجارتهم، واستثمار مناجمهم، وبالإجمال الحرمان المطلق من كل خير، وإنزال كل شىء وضير فيرزحون آخر الأمر تحت أثقال الضرائب وتتحمل أجسامهم مالا تطيق، فعند الوصول إلى هذا الحد من إرهاف الحد تظهر على الأمة عندئذ بعض آثار الحياة وهو ما يشبه «الاختلاج» فإذا التقوا أفرادا أخذ كل منهم ينظر إلى الآخر فيهزون رءوسهم هزًّا خفيفًا، ويفركون أيديهم فركًا غير منتظم، ويحكون رقابهم، هذه هى أول مظاهر الثورة ثم تجول الأفكار، وبعده يبدأ الهمس، ثم الهذرمة، ثم وثم إلى أن يعلو الصوت،

ويرتفع السوط، ويحكم السيف ويأتى من بعده حكم العادل وهو سبحانه ولى المظلومين.

«ولو جاز لدولة أن تشذ فتعامل المستعمرات بشيء من العدل، ولم ترهقهم ظلمًا، وتسومهم جورًا وعسفًا - للزم أن يكون ذلك الشذوذ بمعاملة الإنكليز لمستعمرة «أميركا» وبينها وبينهم من جامعات اللسان، والدين، والمذهب والأخلاق ما يدعو للعطف، ويحمل على الإقلال من العنف.

«ولكن هيهات ! ! فليس لقاعدة الاستعمار من شاذ وكلنا يعلم ما عاناه الأميركانيون من جور الحكومة الإنكليزية، وتفننها بأنواع المظالم، وسلب أموالهم بأشكال الضرائب، وآخر ضريبة، أو ضربة نبهت الأميركانيين ودفعتهم لطرح نير إنكلترا بقوة السلاح، ونهوض الأمة «ضريبة ورقة التمغة» وأن صكوك البيع وكافة العقود والعهود إذا لم تكن محررة على تلك الورقة لا يعمل بها.. وناهيك بما فى هذا الحكم من الجور وضياع أملاك وحقوق - نعم لجأ الأميركانيون فى بدء أمرهم إلى ما يلجأ إليه الضعيف، إذ بعثوا بالشكوى إلى عاصمة الإنكليز ومجلس أشرافهم - عقب جمعية عمومية فى مدينة نيويورك، وعقب أن أوسعوا «مأمور بيع ورق التمغة» ضربًا واتفقت كلمة الجميع على الرفض، وهذا أول طلائع القوة التى لا يرضخ الإنكليز لقوة سواها - وهو اجتماع كلمة «الأمة».

خـدرت أعصاب الأميركانيين بإبطال ورقة التمغة، وفى الوقت ذاته أحدثت ما يمكنها من سـلب مال الولايات المتحدة، فوضعت رسـم الكمرك على ما يدخل إليها من الشاى. وهذا الرسم أكثر سلبًا للمال من التمغة – وعمدت فى التنفيذ إلى اسـتعمال القهر والقوة، ولما كانـت روح الحياة فى الأميركانيين قد دبت وجازت وتخطت دور «الاختلاج» و«الهمس» ووصلت إلى دور ارتفاع الصوت، وسـل السيف – فرمت بالشاى الوارد إلى البحر ووقفت للقوة الإنكليزية بقـوة الأمـة الأميركانية. وألقـت مقاليد أمورهـا وإدارة حروبها الوطنية إلى بطل حريتهم واستقلالهم «الجنرال واشنطون» العظيم.

السيف أصدق أنبـاء من الكتب فى حده الحد بين الجد واللعب

«قل لى لـو ثابر الأميركانيون دهرًا على بث الشـكوى من ولاة الإنجليز إلى مجلس وزراء الإنجليز، واسـتنفدوا المداد، وسودوا مـا فى الأرض من قرطاس تظلمًا واسـتغاثة، هـل كان يفيدهم فى استقلالهم شـيئًا، أو يكشـف عنهم بلاء اسـتعمار البريطانيين؟ لا والذى جعل الجنة تحت ظلال السيوف.

«فقـوة كل أمـة كامنة فى أفرادهـا، لا يظهرهـا إلا الاتحاد، ولا يخفيها إلا التفرق. فمن رام من الأمم استعادة مجدها، والتخلص ممـن أذلها، فليس غير طريق «الاتحاد» ما يوصل إلى الغاية وينقذ مـن البلاء ولا غير حب الموت ما ينجى مـن الموت، وينيل المرء

إحدى الراحتين، فإما أن يعيش بحريته واستقلاله سعيدًا. وإما أن يموت دونهما (بطلًا شهيدًا).

«أرونـى مملكة، أو أمة انغمس ملوكها، وامراؤها فى السـفه، والسرف وعم الجهل طبقات الشـعب، وتفرقت كلمتهم فاستكانوا للذل والهوان، ولم يستعبدها الاستعمار، ويحل فيها الدمار!!.

«وهاتوا، مملكة أو قارة - اتفقت كلمة أهلها - وأنفت من الذل، ورفضت الاسـتعباد واستلت السـيف، وطاب لها الحتف ولم تنل اسـتقلالها والتمتـع بحريتها ولو كان المسـتعمر أعظم الدول قوة واقتدارًا.

«هـل من حاجة للإتيان بالأدلة، وضـرب الأمثلة على أن أصغر الأمم ناهضت أعظـم الدول - وظفرت بحاجتهـا، ونالت حريتها واستقلالها؟

مـن هم اليونان سـكنة ولاية المورة؟ قبل أقـل من عصر عندما ناهضـت الدولة العثمانية، تلـك الدولة التى كانت تحكم سـتين مليونًـا من النفـوس إذ ذاك - واليونان إلى اليـوم لم يتجاوزوا فى متفرق المعمورة مليونين.

«كم عـدد المصريين؟ وهل تجـاوزوا بعد اسـتقلالهم مليونين ونصف مليون نسمة تقريبًا؟!

«ماهو الجبل الأسـود؟ - ومجموع سـكانه لم يبلغوا عدد سكان محلة «بك أوغلو» فى الآسـتانة - وما هى قوته، وجيشه، بالنسبة

لقوة، وجيش الدولة العثمانية!، وهكذا القول فى بلغاريا، ورومانيا.

«فبعد هذه الأدلة المحسوسة، والأمثلة الملموسة - لا يصح أن يبقى أدنى ريب، أن المستعمرت لأى دولة مهما تعاظمت قوة، واقتدارًا، كالثوب العارى لا يلبث حتى يسترد عند طلب صاحبه بالسنن المعروفة، والطرق الموصوفة.

وهل يشك المصريون وهم يزيدون عن العشرة ملايين[1] وكلهم أحفاد الغزاة، الفاتحين من أعز قبائل العرب وإخوانهم الأقباط أحفاد أولئك الأشداء الذين تدل آثارهم على عظم هممهم إنهم إذا نهضوا لم يظفروا بالاستقلال، والحرية وإعادة المجد القديم لذلك القطر السعيد فحسب، بلى إنهم سينهضون إن شاء الله، ويعملون متحدين، معتصمين بحبل الله، وينالون ما يتمنون بحول الله، والله على كل شىء قدير».

طريق الغرب إلى استعمار الشرق

قال فى هذا الصدد ما خلاصته «ما من دولة غريبة تطرق باب مملكة شرقية إلا وتكون حجتها إما حفظ حقوق السلطان، أو إخماد فتنة قامت على الأمير، أو إنقاذ نصوص الفرمانات، أو غير ذلك من البهتان، والختل، والخداع، وواهى الحجج.

(١) هذا كان عدد سكان القطر المصرى يوم كتبت هذه المقالة سنة ١٣١٠هـ ١٨٩٣م (خاطرات جمال الدين الأفغانى لمحمد المخزومى).

«فإذا لم تكف تلك الأضاليل، تذرعت إما بحجة حماية الأقليات أو حقوق الأجانب وامتيازاتهم، أو حرية الشعب، أو تعليمه أصول الاستقلال، أو إعطاء الشعب حقه تدريجيًّا فى الحكم الذاتى، أو إغناء الشعب الفقير بالإشراف على موارد ثروته، فالشعب الخامل يرتاح إلى تلك المواعيد ويرضخ للحجر الغربى.

ولأجل أن يصل الغربى إلى الاستيلاء على بلد ما، يضع خطته وهى:

أولا: إقصاء كل وطنى حر يمكنه الجهر بمطالب وطنية.

ثانيا: تقريب الأسقط همة، والأبعد عن المناقشة والمطالبة بالحق.

ثالثا: الدخول على البلاد بتفريقها طوائف وشيعًا».

ومن يتأمل فى أقوال جمال الدين الأفغانى يجد ولا ريب أنها صادرة عن إيمان عميق بالحرية والاستقلال. عقيدة راسخة فى بغض الاستعمار والثورة عليه، ودعوة صادقة إلى الشعوب الشرقية أن تنهض وتتحرر من ربقة الاستعباد والاستعمار.

❑❑❑

رأيه فى السلف والخلف

وقال عن السلف والخلف: «الكون يشهد، والآثار تدل، ولا من يفكر أن للعرب، وغيرهم من العجم - آثارًا ومفاخر أتت من وراء الهمم، وصدق العزائم معه ولكنها يا للأسف وقفت فى أجداث الأجداد، وجاورت عظام أولئك العظام - أعلام المروءة، عصبة الرحمة، أولياء الشفقة، أهل النجدة، أسود الحمية، وغوث المضيم يوم الشدة، شوامخ القوة، رواسى العدل - تلك بعض صفات السلف - عثر عليها الخلف بالنبش وهو فى جبانة «الجبن» و«الخمول» - وقرأها فى سطور كتاب حادثات الدهر، وأوراق سجل رجال العالم - فطفق يفخر، ويعدد، ويصول، ويقول: نحن من لمعت سيوف أجدادهم بالمشرق، وانقضت شهبها على المغرب، فذلت لهم رقاب القياصرة، والأكاسرة، وخضعت لأمرهم الأمم، خفقت أعلام فتوحاتهم فوق ممالك الأرض فطهروها من جراثيم الظلم والجور وملأوها بالرحمة والعدل - وهكذا لا تزال تسمع كلا من العربى، والفارسى وغيرهما من الشرقيين - يقول نحن أحفاد أولئك الأجداد، ونحن سلالة وذرية أولئك الأقيال الأمجاد، ونحن ونحن مما يثير الأشجان، ويزيد الأحزان.

«نعم أولئك آباؤنا، وأجدادنا قد جاد الزمان بهم فجاءوا ولكن واسوأتاه، وا معرتاه، واخجلتاه! :- إذا هم سألونا عما فعلنا بمخلفاتهم، وما ورثوه لنا، واستخلفانا عليه من الممالك، والأقطار وعظيم المدن، والأمصار.

«نعم أيـن أنتم أيهـا الأجداد، الأمجـاد، القوامون بالقسـط، الآخذون بالعدل، الناطقون بالحكمة، المؤسسون لبناء الأمة؟! ألا تنظـرون من خلال قبوركم إلى ما أتاه خلفكم من بعدكم، وما أصاب أبناءكم ومن ينتحل نحلتكم؟!.

انحرفوا عن سـنتكم - وحادوا عن طريقكم - فضلوا عن سبيلكم - استبدلوا كل فضيلة برذيلة، وأتوا على كل أمر لله بعكسه، نبذوا حكمة الدين واتباع شـرع سيد المرسـلين، وتفرقوا فرقا، وأشياعًا - الملوك منهم أنزلوا عن عروشـهم[1] وذوو حقوق حرموا حقوقهم ظلمًا، وأعـزة باتوا أذلة، وأجلاء أصبحوا حقراء، وأغنياء أمسـوا فقراء وأصحاء سـقامًا، وأسود تحولت نعامًا، فأصبحوا من الضعف على حال تذوب لها القلوب أسفًا، وتحترق الأكباد حزنا، أصبحوا فريسة للأمم الغربية لا يستطيعون ذودًا عن حوضهم، ولا دفاعًا عن حوذتهم.

ألا يصيـح من برازخكم صائح منكم ينبه الغافل، ويوقظ النائم، ويهدى الضال إلى سواء السبيل! «إنا لله وإنا إليه راجعون». «نعم - إن للأرواح إشراقا بهياكلها الروحانية - على ما تلبس من الأجسام الترابيـة فى هذه الدار الفانية، ومناجاة لمن فيه ذلك الاسـتعداد «إذ الإمداد لا يكون إلا على قدر الاسـتعداد» - فإذا أصغينا بالحس الروحـى إلى ما تريـد أن تناجينا بـه أرواح أجدادنـا لوجدناهم يحرقـون علينا الأرم ويزعجهـم الألم وينادوننـا: أيها الأحفاد!

(١) ممن قاوموا الاستعمار وحاربوه وكانت له الغلبة عليهم.

تفتخرون بسيوف لمعت بالمشرق - نعم - وقد تركنا لكم تلك السيوف مشحوذة فى أغمادها - فهلا تقلدتموها؟ وهلا سللتموها فى وجه من اكتسح بلادكم، وضرب عليكم الذلة والمسكنة.

تفتخرون بما فتحنا وتركناه لكم من الممالك، وما تحملناه فى سبيل ذلك من المخاطر والمهالك - ولا تخجلون، ولا تحزنون وقد سلبتها منكم الأعداء وأنتم من مقاعد جبنكم، وذلكم تنظرون - ولا تتحركون ولا تنهضون وحتى ولا تنطقون.

«تفتخرون بصبرنا، وثباتنا، وإقدامنا، وبسالتنا، واعتصامنا بحبل الله واتباع سنن نبيه الكريم ﷺ وأنتم على عكس الأمر من أخلاق وصفات، وما أبعدكم بهذا عن الفخر - وأبعد الفخر عنكم - ولأنتم أولى بإطراق الرأس - وغض الطرف خجلًا، وحياء من الله، ومن أرواحنا فى الملأ الأعلى - التى تبرأ إلى الله من صنعكم وقلة إيمانكم بالله، والعمل بما جاء به رسول الله.

«تفتخرون بتمسكنا بأصول الدين، وحسن اليقين - والتزام الكتاب والسنة والعمل بأحكامهما - وأنه قد استحكمت بيننا رابطة الأخوة فكنا كالبنيان المرصوص - نعم هكذا كنا - أما أنتم فلم يبق من جامعة بينكم إلا العقيدة الدينية «وليس فى الجميع» مجردة عما يتبعها من الأعمال.

انقطع التعارف بينكم، وهجر بعضكم بعضًا هجرًا غير جميل - علماؤكم وهم القائمون على حفظ العقائد، وهداية الناس إليها

- لا تواصل بينهم ولا تراسل مع جمودهم - فالعالم التركى فى غيبة عن حال الحجازى، والعالم الهندى فى غفلة عن شئون العالم الأفغانى - وهكذا - بل العلماء من أهل قطر واحد لا ارتباط بينهم ولا جامعة تجمعهم، ولا صلة إلا ما يكون بين أفراد العامة لدواع خاصة من صداقة، أو قرابة بين أحدهم والآخر - أما فى هيئتكم الكلية فلا وحدة لكم - بل لا أنساب بينكم وكل ينظر إلى نفسه ولا يتجاوزها - كأنه جزء مفصول، أو عضو مبتور.

«تفتخرون بأنه غلب على صفاتنا «التعقل» والتروى وانطلاق الفكر من الأوهام، والعفة، والسخاء، والقناعة، والدماثة، ولين الجانب، والوقار والتواضع، وعظم الهمة، والصبر، والحلم، والشجاعة، والإيثار، والنجدة، والسماحة، والصدق، والوفاء، والأمانة، وسلامة الصدر من الحقد والحسد، والعفو، والمروءة والحمية، وحب العدالة، والشفقة، نعم من الله بها علينا وهكذا كنا - وأنتم أيها الأحفاد! ماذا غلب على أكثركم غير السفه، والقحة، والبذاءة، والبله، والطيش، والتهور، والجبن، والدناءة والجزع، والحقد، والحسد، والكبرياء، والعجب، واللجاج، والسخرية، والغدر، والخيانة، والكذب، والنفاق، والشح. أفبهذه الأخلاق تحبون أن تتغلبوا، وتعجبون كيف تسلب أملاككم، وتذلون؟ أم بهذا ترومون اللحاق بنا وقد خالفتمونا سيرة وسيرا - شيمًا وأخلاقًا؟!.

«هـذا بعض ما تحس به أرواحنا مـن مناجاة أجدادنا لنا – وما أطبق[1] أقوالهم هذه على الحق، وما أقربها من الصواب، والواقع، أى بينـة لنـا على أننا خلف ذلك السـلف – وهل يعقـل لو ورثنا أخلاقهـم، وحافظنا علـى فضائلهم، واقتفينا أثرهـم ولم نحد عن سـيرهم، وسيرتهم – نعم لو عملنا بعض ذلك هل كان يسهل سلب الميراث منا، وأن يستبد بملكنا غيرنا – أم بقينا نحن الوارثين؟.

«إن «دعـوى» حق الأحفاد فى ميـراث الأجداد – هى فى حكمة الكـون والبينة التى يصدر من بعدها الحكـم – هى إثبات التحلى بفضائل السلف، والتخلق بأخلاقهم، والنسج على منوالهم، والتزام ما لزموه من السـنن، وجروا عليه بالقول والعمل – فعسى أن نوفق للإدلاء بتلك الحجة – فتسـتقيم لنا الحجة – إذ كفانا من الذل ما لاقينا، ومن البلاء ما عانينا».

وصفه للإنجليزى والعربى (فى عصره)

قال عن الإنجليزى: إنه قليل الذكاء عظيم الثبات، كثير الطمع والجشع، عنيد، صبور متكبر.

وقال عن العربى أو الشـرقى: إنه كثير الـذكاء. عديم الثبات. قنوع. جزوع. قليل الصبر. متواضع.

يثبت الإنجليزى حتى على الخطأ إذا تسرع وقاله أو باشره.

---

(١) هكذا الأصل والصواب: أن يقال «وما أشد انطباق – أو مطابقة – أقوالهم».

والشرقى لا يثبت على الصواب. ولا على طلب حقه.
فيفوز الأول بخير النتائج بفضيلة الثبات.
ويخسر الثانى حقه برذيلة التلون وعدم الصبر.

رأيه فى الأحزاب السياسية فى الشرق

وقال عن الأحزاب السياسية فى الشرق:

«الأحزاب السياسية فى الشرق نعم الدواء، ولكنها مع الأسف لا تلبث حتى تنقلب إلى بئس الداء، نحسن نحن الشرقيين تأليف الأحزاب السياسية، لطلب الحرية والاستقلال، وكل العالم لنا أصدقاء، ونضطر لتركها والكل لنا أعداء.

«والسبب العامل فى ذلك عدم التكافؤ فى القوى بين الأمة وأحزابها السياسية، يقوم الحزب السياسى، بعنصر ضعيف، أو بأفراد قلائل بينهم اللسن، والمحنك، ويعلنون تفانيهم فى خدمة الأمة لتحريرها من ربقة الاستعباد والاستبداد، ويسرون خدمة أنفسهم، فتتألق على أهل الحزب القلوب، وتجتمع حولهم الكلمة، بسوق الضرورة، وداعى الحاجة، ويستحسن عملهم الغريب، ويهوسهم الدخيل، شأن الحوادث المستجدة، فى انقلاب الأمم من طور إلى طور، فالأمة تتخيل من وراء وعود الحزب سعادة، ورفاهة، وحرية، واستقلالاً، ومساواة، على أوسع شكل، قد لا يمكن حصوله فى البعيد الآجل، فضلاً عن القريب العاجل.

«فيؤزرون الحـزب بكل معانى الطاعـة، والانقياد، والنصرة، والتضحية... الخ.

«فـإذا ما تم للحزب مـا طلبه من الأمة، واسـتحكم له الأمر – ظهرت هنالك فى رؤسـاء الأحزاب، الأثـرة والأنانية، ومد حب الـذات عنقه، فتتقلص من القلوب تلك الطاعة وتنكمش النفوس عن ذلك الانقياد، وتحصل فى النتيجة النفرة العامة.

«فتضطر عندئذ لترك الحزب، وينفرط بالطبيعة عقده، والكل له أعداء». وضرب عدة أمثلـة، منها ما حصل فى الأفغان وغيرها وما حصل فى حزب عرابى فى مصر.

ثم قال: «لا ينبغى أن يؤخذ من قولى هذا أن لا فائدة من الأحزاب على مطلق الرأى والمعنى، فإن الشـرق بعـد أن أخنى عليه الدهر بكلكله، ومرت عليه زلازل العنف والجور، وأشـكال الاستبعاد – إن هذا الشرق، وهذا الشرقى – لا يلبث طويلًا حتى يهب يومًا من رقاده، ويمزق ما تقنع، وتسـربل به هو وأبناؤه من لباس الخوف والذل، فيأخذ فى إعداد عدة الأمم الطالبة لاسـتقلالها، المستنكرة لاستعبادها.

«على هذا الأساس الاجتماعى التدريجى، لا مانع يمنع الشرقى مـن الانخراط فى الحزب بعد الحـزب، وأن يقبل من المواعيد، ما يصدق وما لا يصدق، حتى يظهر فى الشـرق ما ظهر فى الغرب من أفراد يرون الموت فى حياة وطنهم مغنمًا، والحياة فى موت وطنهم مغرمًا.

«حينئذ يكون الشرق قد تسنى له وجود الحزب الذى هو نعم الدواء من داء استعباده، فيجمع شتات أبنائه الذين كانوا أذلة، ويصيرهم بنعمة الإخاء، والاتحاد، والتعاون أعزة - بلادهم لهم وهم لبلادهم نعم الأمناء، يعملون متضامنين فى صالح مجموعهم، ونصرة مظلومهم - يأخذون ما لهم من حق، ويؤدون ما عليهم من واجب وهم لا يحزنون».

مقصده السياسى

قال الأستاذ الإمام عن مقصده السياسى: «إنه كان يسعى لإنهاض إحدى الدول الإسلامية من ضعفها، وتنبيهها للقيام على شئونها، حتى تلحق بالدول القوية، فيعود للإسلام شأنه، وللدين الحنيفى مجده، ويدخل فى هذا تنكيس دولة بريطانيا فى الأقطار الشرقية، وتقليص ظلها عن رءوس الطوائف الإسلامية، وله فى عداوة الإنجليز شئون يطول بيانها». انتهى كلام الأستاذ الإمام.

نقول وقد دل تاريخ السيد على أنه بذل حياته كلها لبعث روح النهضة والحرية فى أمم الشرق قاطبة.

فهو أول زعيم للحرية فى الشرق، وأول باعث لنهضته الحديثة، ولئن لم يشاهد ثمار دعوته وجهوده، فحسبه أنه غارس البذرة الأولى للحركات القومية التى ظهرت فى الشرق منذ نحو تسعين سنة إلى اليوم، وإلى ما شاء الله، وإذا هو لم يشهد نجاح دعوته

قبل موته، فليس مرجع ذلك إليه، لأنه قد أدى رسالته على أتم ما يؤديه الزعماء المخلصون، ولكن عاكسته الأقدار، واعترضت سبيله عقبات جمة، بعضها من مكايد الدول الاستعمارية، وخاصة الدولة الإنجليزيـــة، وبعضها مـــن خذلان ملوك الشـــرق وأمرائه لدعواته واضطهادهم إياه.

فقد رأيت ما أصابه من الخديو توفيق حين ولى الحكم، إذ نقض عهده معه، ونفاه من مصر، وكذلك فعل معه شاه العجم ناصر الدين شـــاه، فقد استدعاه لينتفع من علمه وحكمته، وما لبث أن تنكر له وحبســـه ثم نفاه، وعرفت ما أصابه فى الآستانة على عهد السلطان عبـــد الحميد، مما لا حاجة إلى تكراره، وحســـبك أن تذكر أنه كان ســـجينًا فى قصره ومحاطًا بالعيون والجواسيس، حتى لاقى منيته فى ظروف تدعو للاعتقاد أنه مات شبه مقتول.

فملوك الشرق وأمراؤه كانوا إذن حربًا على جمال الدين، وكانوا من حيث يشعرون أو لا يشعرون عونًا لدعاة الاستعمار فى إحباط جهوده ومساعيه، فليس عجيبًا أن لا يشهد السيد نجاح دعوته فى الإصلاح والحرية، وقد لقى أيضا خذلانًا من أكثر الطبقات، فكأنه كان يرسل دعوته فى صحراء مقفرة، ليس فيها سميع ولا مجيب.

ولا مراء فى أنه قد تقدم الشرق وسبقه إلى الحياة نيفًا ومائة عام، فلم يلب الشرق نداءه فى حياته، ولم تظهر ثمار دعوته إلا بعد مماته، وهذا يزيده فضلاً وقدراً، إنه قام بدعوته فى وقت عز فيه النصير، وقل المستجيب إلى دعوة الحرية والحق.

وقد شعر السيد، وخاصة فى أواخر أيامه، بمرارة اليأس والألم مما لقيه من صنوف الاضطهاد، ونقض العهود والمواثيق، وكم كان حقيقًا بالألم حين يعرض فى ذاكرته مبلغ ما بذله لأمم الشرق من الإخلاص والتفانى فى خدمتها، ثم ما أصابه من كبرائها وأمرائها من التنكر والحجود، وما لقيه من مختلف طبقاتها من الإعراض والخذلان.

ذكر عنه الأمير شكيب أرسلان فى ترجمته[1]: «أنه لقيه بالآستانة سنة ١٨٩٢م، وكان من شدة ما يجد من الألم لحال الإسلام تخطر له خواطر نادرة فى هذا الموضوع، فقال له مرة «قد فسدت أخلاق المسلمين إلى حد أن لا أمل بأن يصلحوا إلا بأن ينشئوا خلقًا جديداً، وجيلاً مستأنفًا، فجبذا لو لم يبق منهم إلا كل من هو دون الثانية عشرة من العمر، فعند ذلك يتلقون تربية تسير بهم فى طريق السلامة».

وقال له مرة أخرى «لم يبق فى الإسلام أخلاق، فهذا محمود سامى البارودى الشاعر الكبير، رئيس الوزراء أثناء الحوادث العرابية عاهدنى ثم نكث معى. وهو أفضل من عرفت من المسلمين»[2]. وقال

---

(١) حاضر العالم الإسلامى جـ١ ص ٢٠٥.

(٢) الإشارة هنا فيما نعتقد إلى ما كان من نفى السيد جمال الدين من مصر فقد نفى بقرار من مجلس الوزراء وكان محمود باشا سامى البارودى وزير الأوقاف فى ذلك الحين واشترك فى هذا القرار.

له أيضا «إن المسلمين قد سقطت هممهم، ونامت عزائمهم، وماتت خواطرهم، وقام شيء واحد فيهم، وهو شهواتهم».

بمثل هذا الخواطر كان يعبر السيد عن ألمه من سوء حالة الأمم الشرقية، وهذا الألم يدلك على مبلغ الشعور الذى تملك لبه، وأنه كان يشتعل غيرة على الشرق والإسلام، ويحزن إذ يرى دعوته لم تلق مجيبًا ولا نصيرا، وإنك لترى صورة الألم والحزن مرتسمة على محياه فى مرضه الأخير، وظل هذا الحزن يلازمه حتى فارق الحياة.

وبعد أن مضت عشرات السنين على وفاته سنه ١٧٩٧م، لم ينهض واحد من المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها يبحث عن قبره ويشيد له ضريحًا يليق بذكرى الرجل العظيم الذى أفنى عمره فى بعث الأمم الشرقية وإنهاضها، وبث روح الحياة والحرية فيها، إلى أن قيض الله رجلاً من سراة الأمريكان (المستر كراين)، فأخذ يبحث ويحقق حتى اهتدى إلى قبر جمال الدين بالآستانة سنة ١٩٢٦م، فأقام عليه شاهدًا فخمًا من الرخام، نقش عليه اسم السيد، وأدى بهذا الصنيع واجبًا كان يجدر بسراة الشرقيين وعظمائهم أن يؤدوه.

وهذا المظهر المستمر من نكران الجميل يكشف لك ناحية من أسباب التأخر السياسى والاجتماعى فى أمم الشرق قاطبة، فإن الأمم لا تسلك سبيل النهضة الصحيحة إلا إذا عرفت أقدار الرجال الذين أفنوا حياتهم فى سبيل مجدها وعظمتها.

بعض كلماته الخالدة

لجمال الدين الأفغانى كلمات خالدة تدل على عظمة شخصيته وإيمانه برسالته وقد مر ذكر بعضها فى خلال الحديث عنه وسنذكر هنا أهمها شأنًا[1].

* * *

- لا جامعة لقوم لا لسان لهم، ولا لسان لقوم لا آداب لهم، ولا عز لقوم لا تاريخ لهم، ولا تاريخ لقوم إذا لم يقم منهم أساطين تحمى وتحيى آثار رجال تاريخها فتعمل عملهم، وتنسج على منوالهم، وهذا كله يتوقف على تعليم وطنى، بدايته (الوطن)، ووسطه (الوطن)، وغايته (الوطن).

* * *

- شر أدواء الشرق داء انقسام أهليه، وتشتت آرائهم، واختلافهم على الاتحاد، واتحادهم على الاحتلاف، فقد اتفقوا على أن لا يتفقوا.

* * *

(١) كثير من هذه الكلمات وردت فى (خاطرات جمال الدين الأفغانى) لمحمد المخزومى، وقد أضفنا إليها وا بعض روائع الكلام التى صدرت عن الحكيم الأفغانى.

– الدخول من باب الذل لا يثمر غير الذل، ومعشر الشرقيين فى الفقر خوف الفقر، وفى الموت خوف الموت.

* * *

– إذا صح أن من الأشياء ما ليس يوهب فأهم هذه الأشياء الحرية والاستقلال لأن الحرية الحقيقية لا يهبها الملك أو المسيطر عن طيب خاطر، وكذلك الاستقلال، بل هاتان النعمتان إنما حصلت وتحصل عليهم الأمم بالقوة والاقتدار.

– ينتصر الحق ويخذل الباطل وإن طاوله الكرم وأمهله العفو ومده الغرور.

– بلغ الإجحاف بالشرقيين غايته، ووصل العدوان عليهم نهايته.

– الإنجليز باقعة العالم وأحبال الحيل.

* * *

– أعتقد أن السجن فى طلب الحق من الظالمين العتاة رياضة، والنفى فى ذلك السبيل سياحة، والقتل شهادة، وهى أسمى المراتب.

الذل عدو العالم

– الذل وصحيح العلم ضدان لا يجتمعان.

العلم والعمل به

– علم قليل مقيد فى الصدور يعمل به، خير من علوم كثيرة مسطورة فى الكتب ولكن لا يعمل بها.

* * *

- أضعف ما فى هذا العصر: حق لضعيف لا قوة له، وأقوى شىء: باطل لقوى يجعل باطله حقًا.

* * *

- لا خير فى حق لا تدعمه قوة.

* * *

- صاحب الحق قوى ولو كان ضعيفًا، والمبطل ضعيف ولو كان قويًا.

يمين جمال الدين

- كان يمينه إذا شاء أن يقسم به قوله: «وعزة الحق، وسر العدل».
- عظمة الملك لا تكون بالتيجان، ووقار العلم لا يكون بالطيلسان.
- «الأكفاء فى العصر لا يكونون على الغالب أصدقاء».

* * *

- الفقر عدو الفضيلة، والثراء نصير الرذيلة.
- حقيقة الأنفة، وعزة النفس عدم الاتكال على الناس.

* * *

- صاحب القلم لا يحتاج إلى عصا.

* * *

- الإفراط فى التواضع دليل على الادعاء.

* * *

- ما مات واحد فى حب أمة إلا وأحبته.

* * *

- لا أمــة بدون أخلاق، ولا أخلاق بغير عقيدة، ولا عقيدة بغير فهم.

* * *

- خير موازين الأمم أخلاقها.

* * *

- يقل العلماء متى كثر المتطفلون والمدعون.

* * *

- العلم الصحيح كسب صحيح، بل وراثة لنبوة.

* * *

- لا مانع من السفور إذا لم يتخذ مطية للفجور.

* * *

- خير لون لراية الاستقلال دماء المجاهدين الأبطال.

* * *

- من اعتقد أن لا حياة إلا هذه الفانية، فقد خسر الأولى والثانية.

* * *

- لا يتم عمل والتآلف مفقود، ولا يكون فشل والاتحاد موجود.

* * *

- من عجز عن إصلاح نفسه كيف يكون مصلحًا لغيره!.

* * *

- أمة تطعن حاكمًا سرًّا، وتعبده جهراً، لا تستحق الحياة.

* * *

- تحتجب الحقائق عن الملوك بقدر تحجبهم.

* * *

- حمال الحطب للاتجار به أنفع من حمال الذهب للادخار.